الفصل الأول

السيرة

١

النشأة

بينما مصر تحاول النهوض على قدميها إثر ما أصابها من كارثة الاحتلال الإنجليزى إذ القدر يختار لها طفلا من أقصى الصعيد مع من اختارهم لها من قبله ومن بعده ؛ ليتمثلوا روحها . وليكتبوا لها مجدها الأدبى الحديث . وقد مضى القدر يعينه بكل الأسباب والخصائص التى تذكى قريحته وتريش أجنحته .

وكان أول ما أعانه به مسقط رأسه : أسوان بلدة الشلال الذى يزأر زئير الأسود ويهدر هدير الرعود ، وبلدة أنس الوجود معبد إيزيس وغيره من المعابد التى نشرف فى أفنيتها على شواهق الزمن السحيق والتاريخ العريق ، وبلدة أول رحالة لأسلافنا الفراعين كشفوا الجنوب قبل لفينجستون وستانلى وغيرهما من الغربيين بآلاف السنين ، وبلدة بئر « إراتستين » الذى هداه قبل ميلاد المسيح بنحو قرنين إلى قياس محيط الأرض قياساً دقيقاً ظل إلى اليوم أحدوثة العالمين ، وبلدة الجرانيت والصخور الصلدة وأحجار الطواحين ، وبلدة الشمس الساطعة التى تملأ

الأرض بأضوائها المتوهجة وكأنما تريد أن تمزق حجاب الغيب والظلام عن آثار الغابرين . وبلدة النيل المبارك الغدوات الميمون الروحات الذى يبعث الحياة فى أعطاف الثرى من حولها فتنبثق الأزهار الناضرة والثمار اليانعة . ومن ورائها صحراء هامدة ، لا حركة فيها ولا صوت ولا ظل ولا حجر ولا شجر . وكأنما انطفأت الحياة إلا ما يجرى فيها من ملاعب الضياء التى يزيغ فيها البصر وكثبان الرمال الشاحبة التى تبدو كأنها قبور موحشة . والبلدة جاثمة فى صورتها العتيقة بتقاليدها المحافظة التى توارثها أهلها على مدى الشهور والدهور ، وعلى قيد خطوات منها فندق الشلال الذى ينزل فيه شتاء السائحات من أقطار الغرب والسائحون ، والذى يكتظ بأحدث مظاهر الحضارة الغربية وكل ما يرتبط بها من أدوات الترفيه الحديثة .

اختار القدر للطفل أن يولد وينشأ فى هذه البلدة وأهداه منها كل ما يرمز إليه محيطها ، أهداه قوة الشلال وهديره ، وشيئاً من جهامة المعابد وما يرين عليها من حزن ، ومحبة أسلافه فى الكشف ، وسنرى أنه انتحى بهذه المحبة إلى الكشف عن ضروب المعرفة وصنوف الآداب . وأهداه صلابة الجرانيت فى الثبات على المبادئ والآراء ، وصوب نظره من أشعة الشمس إلى أشعة المعارف والفنون يريد أن تغمر كل جوانبه الذهنية ، وملأ نفسه من جميع أقطارها بوقار النيل واستقامته واتخاذه فى كل عام نفس طريقه لا يحيد عنه ، مع شىء من السماحة والبشر اللذين يكتنان فى نفس كل مصرى . وليس ذلك فحسب ، فقد بسط تحت بصره

طائفة من النقائض ، تمد بصيرته ويجعلها كونية شاملة ، فهنا حياة الناس والزروع وهناك موات الصحراء والهمود ، وفى بلدته معيشة تسرف فى المحافظة على التقاليد ، وفى ظرفها معيشة تسرف فى التجديد : معيشة الصاخبات والصاخبين من السائحات والسائحين الأوربيين ، وأمامها آثار الأقدمين. حضارات متباينة : حضارة التقاليد وحضارة الغربيين وحضارة الفراعين ، مما كان له أثره البالغ فى سعة نظرته وأفقه ، ولن يتركه القدر فسيعينه بأسباب أخرى تصقل شخصيته وترسم وجهته .

وهذا الطفل هو عباس محمود إبراهيم مصطفى العقاد الذى وُلد فى ٢٨ من يونية سنة ١٨٨٩ لأسرة متواضعة ، إذ كان أبوه أميناً للمحفوظات بمدينة أسوان ، وكانت مجموعة فى صناديق ، فنظمها تنظيما حسناً ، وقد أورث ابنه محبته للنظام ، وكان مستقيم الخلق قوى الإيمان . وهو مصرى أصيل ، كان جده الأعلى يشتغل بمصنع حرير بدمياط ، فلقب بالعقاد ، وتحول منها إلى المحلة الكبرى ، وتصادف أن كان حفيده إبراهيم يحسن الحساب ، فعين صرافاً لمديرية إسنا ، حتى إذا نقلت المديرية إلى أسوان ألقى بها عصاه . أما أم عباس فكانت حفيدة لأحد رجال الفرقة الكردية التى وجه بها محمد على حوالى سنة ١٨٢١ إلى السودان لتأديب ملك « شندى » على عصيانه ، وقد أورثت ابنها امتداد القامة وملامح الوجه وقوة الشكيمة وشدة المراس ، حتى كانوا يلقبونها « بالمشدة » والمشد هو رئيس العمال الذى يشرف عليهم ويسوقهم إلى العمل وينظم حركتهم .

ولما بلغ عباس سن السابعة ألحقه أبوه بالمدرسة الابتدائية ، وسرعان ما

آخذت تتجلى خصاله . فقد حاول أحد المعلمين أن يدعوه باسم عباس حلمى ، وكانت تلك عادة شاعت فى تقاليد ذلك العهد أن لا يدعى التلاميذ فى المدارس المصرية بأسماء آبائهم ، إنما يلقبون بألقاب مثل حلمى وصبرى ولطفى وشكرى . وما كاد يسمع عباس هذا اللقب المستعار حتى أصر على رفضه رفضاً باتا ، إباء وشمماً واعتزازاً بلقب أسرته . ويدل على نزعة الوقار المتأصلة فى نفسه أنه رفض فى هذه السن الباكرة أن يلبس البنطلون القصير ، كما يدل على ما تأصل فيه من نزعة الترفع أنه كان إذا غاضبه بعض الأطفال وشتمه بأبيه عمد إلى ضربه ، فإذا قيل له : ولماذا لا تشتمه كما شتمك قال : وهل أبوه كأبى ! . وتلقن حينئذ درساً عمق فيه الثقة بالنفس والاستهانة بإنكار المنكرين عن جهل أو حسد ، إذ كان بارعاً فى حل المسائل الرياضية ، وتصادف أن أملى أحد معلميها عليه وعلى رفقائه مسألة صعبة ، ولما لم يسارعوا إلى حلها طلبوا منه أن يحلها لهم ، وأعياه الحل فقال : إن هذه المسألة لا تحلّ بالحساب وإنما تحل بالجبر . وسهر عباس حتى حلها ، وغدا فى الصباح يذكر حلها لمعلمه ، وكان عجبه شديداً ، إذ رآه — بدلا من أن يُثنى عليه — يوبخه ، وردد الرفقاء معه التوبيخ والاستخفاف لما ضيع من وقتهم الثمين . وانتفع عباس بهذا الدرس المفاجئ أعظم انتفاع ، إذ علم يقيناً أن الاعتراف بالفضل ليس من دأب الرؤساء والرفقاء ، فلم يلق بالا بعد ذلك لأى بخس أو لأى إنكار وجحود .

ولم يتركه القدر فى تضاعيف ذلك ، فقد أتاح له فرصاً كى تذكو

مواهبه ، وكان من أول هذه الفرص لعبة الجيوش التى كان يلعبها الأطفال بأسوان فى دروب المدينة وأفنية المدارس والمكاتب لأواخر القرن الماضى ، إذ كانوا يسمعون فى أثناء الحملة التى جردت لاستعادة السودان بين سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٩ أن الدراويش سيهجمون على بلدهم فيقتلون رجالها ويسبون نساءها ويحملون أطفالها على أسنة الحراب ، مما جعل عباساً وغيره من الأطفال يعيشون مستعدين للخطر فى كل لحظة ، وبذلك تعود هذا الاستعداد منذ فاتحة حياته . وقد مضى الأطفال جميعاً يكونون جيوشاً تتقاتل فى كل مكان ، جيش المصريين وجيش السودانيين وجيش الترك وجيش الإنجليز ، ولكل جيش قائده وجنوده ، وكان عباس قائد الجيش المصرى . وحاول يوماً هو وقائد جيش السودان المقدام أن يغيرا بجنودهما على مكتب « القومندان الإنجليزى » ولم يلبثا أن فرا بسلام . ولم تكن هذه اللعبة بجيوش الأطفال لعبة عسكرية فحسب . بل كانت أيضاً لعبة أدبية تفتحت فيها موهبة عباس الشعرية ذلك أن مقاهى أسوان كانت تكتظ فى أيام الحملة على السودان بشعراء « الربابة » الذين كانوا يستهلون كل صدام بين أبطال القصص الهلالية والعنترية بأشعار حماسية حسب المقام ، فاتبع عباس نفس الطريقة ، وأخذ ينظم الأناشيد الحماسية مستهلا بها مبارزات جيشه العسكرية : وبذلك فجر هذا العبثُ الصبيانى ينبوع الشعر على لسانه ولما يتجاوز العاشرة من عمره . وفرصة ثانية أعدها له القدر ، فقد كان أبوه يصحبه فى زياراته لمجلس الأستاذ الأديب القاضى الشيخ أحمد الجداوى أحد فضلاء الأزهريين الذين لزموا دروس

السيد جمال الدين الأفغانى فى أثناء مقامه بالقاهرة ، فكان يسمع منه أحاديث عنه وعن دعوته ، وكان الحديث يتطرق أحياناً إلى عبد الله نديم كاتب الثورة العرابية وخطيبها . وكثيراً ما كان يورد الشيخ الجداوى على رواد مجلسه المطارحات الشعرية التى كان يرويها عن المتقدمين والمتأخرين . ومن كل ذلك أفاد عباس إذ تلقن وهو صغير ، دعوة جمال الدين ، ولا بد أنه سمع فى ثنايا ذلك أحاديث عن الشيخ محمد عبده تلميذه ، وكان يُعد أكبر شخصية إسلامية فى عصره ، وكان من عادته أن يزور أسوان فى الشتاء ، ويهيىء القدر لعباس لقاء معه يؤثر فى نفسه تأثيراً عميقاً ، ذلك أنه زار مدرسته يوماً ، وأخذ يمر على الصفوف المختلفة ، ودخل صفه ، وتصادف أن كان الدرس درس الإنشاء ، وكانت الموضوعات تختار عادة من موازنات بين الفصول كالصيف والشتاء أو بين بعض المعادن كالذهب والحديد ، وكان عباس يقف دائماً مع أضعف الطرفين فى الموازنة ، ليظهر قدرته العقلية فى إعلاء الطرف الضعيف ببراهينه الدامغة ، وهى قدرة ظلت ترافقه طوال حياته ، بل لقد اندلعت فيما بعد اندلاعاً ، حتى غدت كتاباته حادة المنطق حدة شديدة . وكان موضوع الدرس « الحرب والسلام » فكان طبيعيا أن يختار عباس الجانب الضعيف وهو الحرب . ولتقدمه بين رفقائه فى كتابة الإنشاء أخذ منه المدرس كراسته وعرضها على الشيخ محمد عبده ، فعجب حين رآه يفضل الحرب محتجا بأنها مجال لإظهار التضحية والبطولة ، وأنها تنقى المجتمع من عناصره الضعيفة . وابتسم الشيخ محمد عبده

وقال لعباس : كيف تفضل الحرب ؟ ! وأخذ يوضح له أضرارها ؛ ولم يلبث أن ربت بيده على كتفه ، هاشا له ، قائلا : « ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعدُ » . وكأنما كانت كلمة سحرية فقد استقرت فى نفس عباس ورسمتْ له مستقبله .

وعلى هذا النحو أخذ القدر يسوق لعباس الفرص والبواعث منذ نعومة أظفاره لكى ينمى ملكاته الشعرية والأدبية ، وكان من أول ما قرأ كتاب « المستطرف من كل فن مستظرف» للإبشيهى وديوان البهاء زهير وقصص ألف ليلة وليلة ومجلد من دائرة المعارف للبستانى . ووضع القدر تحت بصره صواناً بداره كان أبوه يودع فيه كثيراً من الصحف القديمة ، وخاصة طائفة من أعداد « صحيفة الأستاذ» لعبد الله نديم الصحفى البارع ، فأكثر من قراءتها ، وراعه فيها براعة النديم فى عناوين مقالاته ، وكأنما أحس التلميذ الناشىء نداء من داخله يدفعه إلى إخراج صحيفة على غرار صحيفة « الأستاذ » سمّاها من باب المعارضة باسم « التلميذ » . وأصدر منها بضعة أعداد كان يقرؤها بعض رفاقه وأقاربه مشجعين له ومتندرين متفكهين . وكان على من يريد نسخة من هذه الصحيفة أن ينسخها ، وهذا كل ما يدفعه لها من ثمن . وكان يجعل المقالة الافتتاحية معارضة لإحدى مقالات النديم المشهورة ، وكأنما كان ذلك إرهاصاً لما سيودع فيه حياته من الكتابة الصحفية ، فقد استقرت فى نفسه رغبة مبكرة ليكون كاتباً صحفيا .

وليس ذلك كل ما هيأه القدر لعباس فى نشأته ، فقد هيأ له أيضاً

أن يتقن الإنجليزية ، حتى يتخذ من هذا الإتقان وسيلته فيما بعد للاطلاع الواسع على الآداب الغربية ؛ وكان التلاميذ ، فى المدارس الابتدائية لهذا التاريخ ، لا يتعلمون الإنجليزية فحسب ، بل كانوا يتعلمون بها أيضاً المواد المهمة مثل الجغرافيا وعلم الأشياء (المعارف العامة) مما جعلهم يصيبون منها حظا كبيراً . واختصت أسوان حينئذ بمزايا أتاحت لعباس أن يعمق معرفته بالإنجليزية ، وكان من هذه المزايا الدائم والطارئ ، أما الدائم فافتتاح المكتبات الأجنبية فى موسم السياحة شتاء ، لبيع الكتب والصحف والمجلات الغربية ، فكان عباس يتزود منها بما يوسع فهمه للإنجليزية ، وكان كبار السائحين يزورون مدرسته فى بعض الأحيان ويتحدثون مع تلاميذها ، إذ كانت المدرسة تدعو نفراً منهم دعوات خاصة فكان عباس وأقرانه يجلسون مع أزواجهم وأبنائهم ، ويتكلمون معهم بالإنجليزية . وكان ذلك يتيح له زاداً لغويا جديدا فى تلك اللغة . أما الطارئ من المزايا فيرد إلى الحملة على السودان فيما بين سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٩ وإلى خزان أسوان وإنشائه فى سنة ١٨٩٨ ، أما الحملة فإنها دفعت الإنجليز إلى تعيين حاكم عسكرى منهم على أسوان ، ووزعوا من حوله على المصالح الحكومية طائفة من الإنجليز العسكريين والمدنيين ، فاحتاج أهل المدينة لمن يحسنون الإنجليزية حتى يترجموا لهم الأوراق الرسمية ويكتبوا ما قد يقدمونه من « عرائض » بتلك اللغة الأجنبية . ولم يجدوا أمامهم سوى عباس و رفاقه من أبناء مدرسته ، فكانوا يعتمدون عليهم وينفحونهم نفحات سخية قد تبلغ نصف ريال . وكان عباس يفرح

بما يغدق عليه من هذه النفحات ؛ ويزداد دأبه فى تعلم الإنجليزية . وأما إنشاء خزان أسوان فقد جلب إلى المدينة مئات الخبراء والمهندسين الإنجليز ، وكانوا يغدون ويروحون وفى أيديهم الصحف الأجنبية ، فكان عباس ورفاقه يحدثونهم أحياناً ، وأحياناً كانوا يطلعون على ما يحملون من بعض الصحف ، فيقرءون عنواناتها وقد يقرءون بعض ما فيها من أخبار . كل ذلك أتاح له عتاداً كثيراً من الإنجليزية ، وهو عتاد أعده فيما بعد لكى يقتحم لا كنوزها فحسب ، بل كنوز الآداب الغربية جميعها .

وتخرج عباس فى المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٣ وهو يحمل فى صدره هوى لحياة الجندية منذ قيادته التى أسلفنا الحديث عنها فى لعبة الجيوش الصبانية ، فتمنى لو انتظم فى المدرسة الحربية . وكان يلمح فى داخله شغفاً بأزهار الحديقة المدرسية وسائر الحدائق المحيطة ببلدته ، كما كان يلمح تعلقاً بمعرفة طبائع الحيوان ، وكثيراً ما وقف منبهراً أمام الطيور المهاجرة التى تعبر أسوان فى أوائل الشتاء وأوائل الصيف ، وجعله كل ذلك يتمنى لو دخل مدرسة الزراعة . ولم تتحقق الأمنيتان جميعاً ، لأن أباه كان يرى أن يكتفى بما حصّل من الدرس وأن يتوظف . على أنه إن كانت قد فاتته الجندية الحقيقية فإن حياته الأدبية والصحفية لم تخل من نضالها ، بل لقد تحوّل بها إلى نضال محتدم على نحو ما سنعرف ، أما شغفه بالزهور والطيور وطبائع الحيوان فلم يكن صادرا فيه عن ميل حقيقى لدراسة الزراعة ، إنما كان صادراً فيه عن وجدان فنى صادق فى

طواياه ، وهو وجدان جعله يتعاطف مع الطبيعة فى مختلف مظاهرها ويهيم بها على نحو ما يهيم الشعراء المولعون بوصفها وتصويرها .

وبقى مدة فارغاً من العمل ، فتبرع بالتعليم فى المدرسة الإسلامية الخيرية ببلدته ، يريد أن يقتل فراغه ، ويسوق القدر له حادثاً يجعله يصدف عن مصطفى كامل ، ذلك أنه قدم إلى أسوان بموسم الشتاء فى سنة ١٩٠٤ ومعه الكاتبة الفرنسية « مدام جولييت آدم » وكاتبة إنجليزية من حزب الأحرار تدعى « مسز يونج » وكان ناظر المدرسة يراسل صحيفة « اللواء » ودعاه إلى زيارة المدرسة . فزارها مع رفيقتيه ، ودخل حجرة السنة الرابعة ، وتصادف أن كان التلاميذ يأخذون درساً فى اللغة العربية ، فأملى عليهم قول أبى العلاء المعرى :

والمرء ما لم تفدْ نفعاً إقامته غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجمه إلى الفرنسية للسيدتين الأجنبيتين بطلاقة ، ثم طلب إلى التلاميذ أن يشرحوه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح . وحينئذ تدخل عباس قائلا : إن الغيم الذى يحجب الشمس المحرقة فى أسوان ولا يمطر ولا يسير يعد نعمة محبوبة . وانتظر عباس من مصطفى كامل أن يبدى ارتياحاً لما أورد على سمْعه من حسن التخلص ، ولكنه تجهم له وزوَى وجهه ، وكأنما خدش فى الفتى الأسوانى كرامته ، فظل صادفاً عنه ، وسنرى هذا الصدوف يتسع على ضوء من دعوة الشيخ محمد عبده وتلاميذه القائلين بفصل مصر عن السيادة العثمانية ، ومر بنا آنفاً من لقائه مع الشيخ ما جعله عظم معاصريه خطراً فى نفسه .

وكأنما القدر غفل عنه قليلا إذ لم يوجهه توا الوجهة التى اختارها له ؛ فقد استطاع أبوه بماله من صلات طيبة برؤساء الديوان أن يوظفه بأربعة جنيهات تلميذاً بالقسم المالى فى مدينة قنا ، ويحضر إلى القاهرة لإجراء الكشف الطبي عليه فى سنة ١٩٠٥ وتراه يلقى الدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف الذى اشتهر حينئذ باسم فيلسوف العصر ويحاوره فى فلسفة ما وراء الطبيعة ، ويعرف منه أنه لا يسيغ هذه الفلسفة ؛ وأنه إنما يعجب بفلسفة العلوم التجريبية التى لا تقيم براهينها على الفروض ؛ إنما تقيمها على الوقائع والمشاهدات . ويدهش عباس ويشترى كتاباً كانت قد طبعته دار المقتطف هو كتاب « الكائنات » لجميل صدقى الزهاوى ، وكان يخوض فى بعض مباحث فلسفة ما وراء الطبيعة . ومعنى ذلك أنه أخذ يعمق قراءاته حتى الأغوار البعيدة للفلسفة . ولا يلبث أن يثبت وينقل إلى القسم المالى فى الزقازيق بنفس السنة ، فتتكرر زياراته إلى القاهرة مرة كل أسبوعين أو كل شهر ، ليشهد التمثيل الذى كانت تنهض به فرقة سلامة حجازى ، وليشترى الكتب التى كانت لا تصل مع الباعة المتجولين إلى الأقاليم ؛ وكان راتبه قد زاد جنيهاً ، فكان يدخر منه مبلغاً كبيراً لشراء الكتب ، واقتنى حينئذ كتباً كثيرة عربية وغربية ، إذ كانت الكتب جميعاً قليلة الثمن ، فمثلا كان العقد الفريد بأجزائه الثلاثة يباع بخمسة عشر قرشاً ، وكانت هناك طبعات رخيصة للكتب الغربية ، بحيث لا يزيد ثمن الكتاب على خمسة قروش . وتحول الفتى إلى ما يشبه نحلة يلتقط من هنا وهناك ما يستحيل فى داخله رحيقاً مصفى .

ونراه فى إحدى زياراته للقاهرة يقصد إلى مكتبة جرجى زيدان بحى الفجالة ليسأله عن كتاب عربى فى فلسفة الجمال ، ولم يكن فى العربية كتاب يعالج تلك الفلسفة ، فعجب جرجى زيدان من سؤاله ، ولما استفسر منه عن سبب بحثه عن هذا الكتاب أجابه بأنه قرأ فصول الكاتب الإنجليزى إدمون بيرك عن الجليل والجميل ، فظن أن الكتاب طرقوا الموضوع فى العربية . واستقر فى ضميره من حينئذ أنه لا بد أن يعتمد على نفسه فى معرفة الثقافة الغربية . واستيقظت فى قلبه موهبته الشعرية ، فنظم قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه أسوان ، يقول فى مطلعها :

ذكرانى نعيمها ذكرانى حبذا لو علمتما ما عنانى

وقد عارض بها قصيدة المعرى :

عللانى فإن بيض الأمانى فنيتْ والظلامُ ليس بفان

وراقت القصيدة منْ سمعوها من زملائه المتأدبين ، فاقترحوا عليه طبعها بإحدى مطابع المدينة فطبعها . ونبه هذا الطبع فيه ملكته الصحفية التى ظهرت بواكيرها فى صباه كما أسلفنا ، فعزم على إصدار صحيفة واختار لها اسم « رَجع الصدى » وأوشك أن ينفذ عزيمته فى إحدى زياراته للقاهرة ، لولا ما عرفه من صعوبة التوزيع وأن الصحف كانت تقوم غالباً على استدرار شفقة المحسنين . وظل مع ذلك يعظم صناعة الصحافة وأعلامها النابهين . ونراه يستقيل فجأة من وظيفته سنة

١٩٠٦ ويلتحق بمدرسة الفنون والصنائع ، ثم يتركها ويوظف فى مصلحة البرق « التلغراف » ويأخذ فى تعلم دروسه بمدرسته فى ضاحية الدمرداش بالقاهرة ، ويمضى فى ذلك ستة أشهر يتجه بعدها إلى الصحافة التى أعده لها القدر من قديم . وربما كان توظفه بمصلحة البرق اقتداء منه بعبد الله نديم الذى توظف بها حيناً ، وأيضاً ربما كان اشتغاله بالتعليم فى المدرسة الإسلامية الذى تحدثنا عنه آنفاً ضرباً من هذا الاقتداء ، إذ اشتغل عبد الله نديم أيضاً بالتعليم فى المدارس الخيرية ، وهو أخيراً فى سنة ١٩٠٧ التى توفى فيها أبوه يخلص مثل النديم للخدمة الوطنية . على أنه ستظل بينهما فروق عميقة فى المزاج والشخصية ، وسنرى عباساً يضيف إلى الخدمة الوطنية مشاركة قوية فى الحياة الأدبية .

٢

صراع مرير

لكى نتابع خطى عباس وأين تستقر قدماه فى هذه المرحلة الثانية من حياته لابد أن نعرف الظروف التى كانت تحيط بمصر وبالتالى بصحافتها ، وهى ظروف كان يجرى فيها كثير من السواد والكآبة ، فقد كانت مصر محتلة بالإنجليز الغاشمين يعصرونها هم والخديو عباس والمقربون له من الأتراك وشراذم الأجانب الذين وفدوا علينا من كل صوب ، وكانت لا تزال حديثة العهد بمأساة دنشواى ، والشعب يجر محاريثه ليجنى الدخلاء الثمارَ والنضار .

وكانت القاهرة حينئذ أشبه ما تكون ببرج بابل ، تعج بضوضاء دعوات من كل لون وعلى كل صنف ، إذ اتخذتها الدول الاستعمارية والدولة العثمانية مركزاً لدعواتهم ؛ وبذلك تعالت الأصوات من كل جانب ، فأصوات تدعو للسيادة العثمانية والجامعة الإسلامية مخلصة وغير مخلصة ، وأصوات تدعو للسلطان عبد الحميد ظل الله فى أرضه ، وأصوات تدعو لخصومه من حزب تركيا الفتاة ، وأصوات تدعو للإصلاح فى إيران وغيرها من الدول الأسيوية ، وأصوات تدعو ضد الاستعمار فى الدول الإفريقية ، ويندس بين كل هذه الأصوات أصوات الدعاة المأجورين لخدمة المستعمرين. ولكى يتضح مدى ما كان فى هذه الأصوات من اختلاط نقف عند الأصوات التى كانت تنادى بالجامعة الإسلامية ، فقد كانت تتألف من مجموعتين : مجموعة تستهدى بدعوة السيد جمال الدين الأفغانى التى كانت تريد لهذه الجامعة أن تكون جامعة شعوب مرعية الحقوق مع حكامها مسئولة عن ديارها وشئونها ، ومجموعة تعمل لحساب الخديو وسادته العثمانيين لا تفكر فى شعوب ولا فى مصلحة شعوب ، وتستخدم فرنسا نفراً يصيحون بهذه الدعوة مناوأة للإنجليز ، ويصيح بها نفر لإحداث الشقاق والفرقة بين أبناء الوطن العربى الواحد ، حتى يوصموا بتهمة التعصب الدينى ، وحتى يجد الاستعمار معذرته فى ربوضه على صدر البلاد حماية لمن كان بها من الأجانب .

وكانت تتوزع الجهاد الوطنى ثلاثة أحزاب : حزب كثير الأتباع من الأمة والشباب هو الحزب الوطنى الذى يتزعمه مصطفى كامل ، وقد

أشعل البلاد ناراً ملتهبة ضد المستعمرين الآثمين ؛ واتخذ من صحيفة « اللواء » سياطاً يهوى بها على جلودهم ؛ وأمدها بشعل من خطابته المستعرة . وحزب لم يكن يبلغ أتباعه من الأمة والشباب ما يبلغه حزب مصطفى كامل ؛ وهو حزب الأمة الذى كان يرفض السيادة الشرعية للعثمانيين على البلاد . وكان يؤيدها مصطفى كامل وحزبه ، مستلهما دعوة جمال الدين الأفغانى إلى الجامعة الإسلامية . ولكى يواجه الإنجليز الغاصبين بأصحاب السيادة القانونية قبل احتلالهم ، متخذاً من ذلك ضرباً من المناورات الدولية . وكانت تركيا على وشك الانهيار ، إذ كان يسميها الأوربيون بالرجل المريض ، فانحاز حزب الأمة عن هذه الفكرة ، ودعا إلى الاستقلال الخالص وأن مصر للمصريين ، واتخذ من صحيفة « الجريدة » لساناً له . أما الحزب الثالث فكان حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وهو حزب كان يحتضنه الخديو عباس بحيث يمكن أن يسمى باسم حزب القصر ، وكان يشترك مع الحزب الوطنى فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، ولكنه كان يتجه بها نحو خدمة القصر حتى يخفف الإنجليز من قبضة أيديهم على عنق الخديو وسلطانه . وكان هذا الحزب يتزعمه الشيخ على يوسف محرر صحيفة « المؤيد » ولسان الحزب الرسمى الدبلوماسى .

وكان طبيعيا أن لا يفكر الفتى الأسوانى فى الانضمام إلى أسرة «المؤيد» إذ كانت منبوذة من الشباب والأمة ، وانصرف أيضاً عن أسرة « اللواء » لا لأنه كان لا يزال يذكر موقف مصطفى كامل منه فى المدرسة الإسلامية

الخيرية ببلدته فحسب ، ولكن أيضاً لأنه كان لا يؤمن بفكرة التعلق بالخلافة العثمانية التى آمن بها مصطفى كامل ؛ إذ كان يرى فى هذه الفكرة — كما مرّ بنا — ضياعاً لاستقلالنا المرموق ، وأيضاً فإن مصطفى كامل كان ينزع نزعة خطابية شعورية ، بينما كان ينزع الفتى الأسوانى نزعة عقلية ذهنية ، وكان يحس فيه نزوعاً إلى الأرستقراطية على الرغم من دعوته الديمقراطية ، ورآه يقف فى مقاومته للإنجليز عند الثورة العارمة عليهم ولا يضيف إلى ذلك دعوة واضحة إلى تغيير النظم فى حياتنا الاجتماعية والسياسية . كل ذلك جعله يصدف عن أسرة « اللواء » وكثيرٌ مما فقده عند مصطفى كامل وجده ماثلا فى حزب الأمة الذى كان يدعو إلى الاستقلال المصرى الخالص وإلى بعض المثل التى ينبغى أن يحققها الشعب لنفسه فى نظمه السياسية والاجتماعية على نحو ما كان يصور ذلك أحمد لطفى السيد محرر « الجريدة » .

وكان هو ونفر من أعضاء الحزب يعدون فى الطليعة من تلاميذ الشيخ محمد عبده . وبذلك كان هذا الحزب قريباً من نفس الفتى الأسوانى ، وهى قُرْبىَ قديمة الوشائج لما أسلفنا من تشجيع الشيخ له . على أنه وجد هذا الحزب يضم بين صفوفه طائفة كبيرة من الإقطاعيين المصريين ذوى النزعة الأرستقراطية ، فأحس كان أسواراً صفيقة تحول بينه وبين أسرة « الجريدة » . وشعر الفتى برغبة فى الاستقلال عن الحزبين الكبيرين : حزب الأمة والحزب الوطنى ، ولكن أين يعمل ؟ إنه لابد أن يعمل فى صحيفة وطنية شعبية ، وأتيحتْ له الفرصة ، فإن محمد فريد وجدى العالم

المؤرخ المشهور بثقافته الإسلامية الفلسفية وردوده على كتاب الغرب الجاحدين لفضائل الإسلام أعلن فى الصحف لسنة ١٩٠٧ عن حاجته إلى محرر يشترك معه فى إصدار صحيفته: « الدستور » . ولم يكد الفتى الأسوانى يقرأ إعلانه حتى كتب إليه يرشح نفسه لمؤازرته فى تحرير تلك الصحيفة ، ورد عليه محمد فريد وجدى طالباً منه أن يلقاه فى موعد ضربه له . ولقيه فوقع فى نفسه وعهد إليه بالتحرير معه نظير ستة جنيهات شهريا . وتفانى الفتى فى عمله الواسع إذ كان يعد « نصف هيئة التحرير » برمتها مع ما يتبع ذلك من جلب الأخبار من الدواوين الحكومية . وكانت « الدستور » تُعد بجانب « اللواء » لساناً ثانياً للحزب الوطنى ولكن صاحبها امتاز بحرية عقلية واسعة ، جعلته يصطدم أحياناً بمصطفى كامل ، كما جعلته يفسح للشاب الأسوانى الناشىء أن يخالفه فى بعض آرائه وبعض مبادئه السياسية ، خاصة مبدأ السيادة العثمانية على مصر ، دون غضاضة . ومن المواقف التى فسح فيها للفتى مع مخالفتها لرأى الحزب الوطنى حديث أجراه مع سعد زغلول وزير التربية والتعليم حينئذ ، دار حول ما كان يعزوه الحزب الوطنى ومحررو « اللواء » إلى سعد من تخليه عن إتمام مشروع الجامعة المصرية بوحى من الإنجليز وقصر الدوبارة ، وكان الفتى يجل سعداً تلميذ الشيخ محمد عبده لمواقفه الوطنية وعلى رأسها تعريب التعليم فى المدارس وجعل اللغة العربية لا الإنجليزية لغة المواد المختلفة ، فقصده فى أوائل شهر مايو سنة ١٩٠٨ وأجرى حديثاً معه حول تلك التهمة نشره فى صحيفة « الدستور »

وفيه نفى سعد التهمة نفياً باتا ، وأظهرت الأيام التالية براءة ساحته إذ أنفذ المشروع على وجهه . وظل الفتى يقدر سعداً حتى انضوى تحت لواء حزبه على نحو ما سنرى فى المرحلة الثالثة من حياته . وقد سجل بهذا الحديث أولية فى تاريخ الصحافة المصرية ، إذ كان أول حديث صحفى مع وزير مصرى . وأتبع الحديث بحديث آخر مع بعض الساسة الشرقيين.

وكان لعمله مع محمد فريدى وجدى فى باكورة حياته الصحفية أثر بعيد ظل كامناً فى أطوائه حتى اتجه فى المرحلة الرابعة لحياته إلى الكتابة فى الإسلام وأعلامه البارزين . وأخذ حينئذ يختلط بأوساط الصحفيين فى المقاهى التى كانت موزعة بين العتبة الخضراء و باب الخلق والفجالة وحى الحسين . وتعرف على بعض الشباب الناشئين ممن كانوا يكتبون فى صحيفته وقد يكون من الطريف أن نعرف أن الفتى الأسوانى كان يوقع مقالاته فى صحيفة « الدستور » بتوقيع « ع . م العقاد » على نحو ما كانت توقع المقالات التى كان يقرؤها فى المجلات الغربية . وقد أخذ يدمن القراءة فى طائفة من الكتاب الإنجليز المشهورين أمثال كارليل وماكولى وهازلت ولى هنت وأرنولد ، وكان يعمد أحياناً إلى تلخيص بعض مقالاتهم الطويلة لقراء « الدستور » وحاول أن يحاكيهم بمقالات تحدث فيها عن بعض أدباء العرب و بعض شعراء الفرس ، واعتمد فى كتابته عن الأخيرين على ما ترجم من أشعارهم إلى الإنجليزية . وهو بذلك يعبر عن اتجاه واضح للمشاركة فى الحياة الأدبية بجانب مشاركته فى

الحياة السياسية . وغلبت عليه النزعة النقدية فيما يكتب . وقلما كان يكتب حينئذ مقالات وصفية أو عاطفية ؛ إذ كان ينظم الشعر ويَرَى أنه هو الخليق بالموضوعات العاطفية والوصفية . ولم يتجه بشعره — على شاكلة شوقى وحافظ إبراهيم — إلى المديح وتملق أصحاب السلطان ، فقد كان فى نفسه كره متأصل للخديو والخليفة العثمانى ومن يلوذون بهما ممن يظلمون الرعية ويعبثون بحقوقها ، فانصرف عن هذا الاتجاه إلا مرة واحدة مدح فيها السلطان عبد الحميد ، وكان لها تبريرها الشعبى إذ رآه يعلن الدستور فى سنة ١٩٠٨ نزولا على إرادة شعبه التركى . وكان يُضْمر للخديو عباس بغضاً شديداً ، ظهرت آثاره حين رآه يحاول بعد وفاة الشيخ محمد عبده استئصال نهضة الإصلاح فى الأزهر ، حتى إذا استفحلت نقمة الأزهريين عليه تحدث مع طائفة منهم ، وأقسم أنه يَغار على هذا الإصلاح غيرة شديدة . حينئذ غضب الفتى الأسوانى لما يعلم من كذبه وسوء نيته ودبج مقالا طويلا ، آثر أن لا ينشره فى صحيفة « الدستور » حتى لا يحرج صاحبها المعروف بآرائه الدينية المستقلة ، ونشره فى صحيفة « الأخبار » التى كان يحررها توفيق حبيب بتوقيع « ع . الأسوانى » وثارت ثائرة الخديو وحاشيته إذ دار المقال على أن الحكام لا يحتاجون إلى القسم والتمين المغلظة ، لأنهم يُثبتون نياتهم بالأفعال لا بالأقوال . وكاد يقدم حينئذ إلى النيابة بحجة عيبه فى الذات الخديوية ! ولكن الله سلم ، إذ خشيت بطانة الخديو من أن يكون ذلك مجالا لإثارة القضية الأزهرية على ألسنة الصحف وفى

أطوار التحقيق والمحاكمة والدفاع .

ولا تلبث الأيام أن تتجهم للمحرر النشيط وصاحب صحيفة «الدستور» فإذا الصحيفة لا تفى بمصروفاتها ، وإذا سيفُ إغلاقها يُصلّتُ علىها ، ويحاول محمد فريد وجدى — بكل ما وسعه — أن ينقذها ، فيبيع مؤلفاته لسداد نفقاتها ، ولا تفى بتلك النفقات فتغلق نهائيا . وكان جو من الكآبة والكساد قد غمر الصحف على إثر صدور قانون المطبوعات الجائر فى سنة ١٩٠٩ فعاش الفتى الأسوانى بدون عمل ، ومرت به أيام سود لم يجد فيها من يسنده ، فقد توفى أبوه كما مر بنا ورده حياؤه وكبرياؤه عن الاستعانة ببعض أقربائه ، فاضطر إلى بيع كثير من كتبه العربية والغربية التى كان قد اقتناها فى السنوات الماضية ، ليشترى ما يسدّ به رمقه ، كما اضطر إلى إعطاء بزاز درساً خصوصيا نظير كسوة تقيه غائلة الحر والبرد . وازداد به الضيق وأصبحت حياته ضنكاً خالصاً وهو فى أثناء ذلك يتابع القراءة فى كتب الفلسفة وفى مذهب النشوء والارتقاء . وحل به إعياء شديد ، ولم يعد يستطيع أن يدفع إيجار مسكنه ، فلم يجد بداً من مبارحة القاهرة إلى بلدته ، وهناك ازداد به الإعياء حتى خال أنه فريسة لمرض الصدر ، وأنه ميت لا محالة ، وأن كل ما كان يتطلع إليه من مجد أدبى لن يتحقق ، وكان قد ملأ ثلاثة دفاتر بمذكرات يومية دون فيها ملاحظاته على ما يقرأ وبعض أشعاره ، فاختار منها طائفة وسماها « خلاصة اليومية » وأرسلها إلى صديق له بالقاهرة كى ينشرها إذا أدركه الموت ، حتى تظل أثراً باقياً له من بعده ، فاحتفظ له بها وديعة ثمينة .

ويظل يتجرع غصص الإعياء الجسدى نحو عامين ، عاشهما فى يأس متصل ، ويعود إليه شىء من قواه ، فيمم وجهه نحو القاهرة محاولا بإرادته الحازمة الصارمة أن يصرع يأسه وأوهامه السوداء التى سيطرت عليه ؛ ويعيش مما يرسله إليه أهله ومن المقالات والفصول المترجمة لمجلة البيان التى كان يصدرها منذ سنة ١٩١١ عبد الرحمن البرقوقى ؛ وكان يكتب فيها صفوة من ناشئة تلك الحقبة وفى مقدمتهم إبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى ، وأخذت تنعقد بينه وبينهما أواصر صداقة وثيقة هيأت لظهور جيل جديد فى شعرنا الحديث ، وهو جيل تواضع — مستضيئاً بقراءاته فى الآداب الغربية — على ما ينبغى أن يترسمه الشعراء فى أشعارهم من تصوير الخوالج النفسية والأحاسيس الإنسانية .

واتفق أن كتب الفتى الأسوانى فى مجلة البيان سنة ١٩١٢ تلخيصاً بديعاً لكتاب ماكس نوردو عن أكاذيب المدنية الحاضرة ، فلفت نظر محمد المويلحى صاحب حديث عيسى بن هشام ، وكان مديراً لقسم الإدارة بديوان الأوقاف ، ويتبعه تحرير المجلس الأعلى والمجلس الإدارى للديوان وقلم للسكرتارية . وعرف من البرقوقى أن الفتى يعيش على مورد محدود مما يكتبه من المقالات وفصول الكتب المترجمة ، فقال ما أجدره بوظيفة فى ديواننا ينال بها راتباً منظماً . ونقل البرقوقى حديث المويلحى إلى الفتى ، فتقدم إلى الديوان يطلب وظيفة وأجيب طلبه لساعته . وجعله المويلحى مساعداً لكاتب المجلس الأعلى بقلم السكرتارية . وكان ديوان الأوقاف حينئذ يغص بكثير من الأدباء أمثال عبد العزيز البشرى .

والشعراء أمثال عبد الحليم المصرى وأحمد الكاشف ومحمود عماد ومصطفى الماحى فأخذ يختلط بهم ، وسرعان ما نراه ينشر « خلاصة اليومية » كما ينشر كتيباً عن المرأة سماه « الإنسان الثانى » وفيهما يتردد اسم أبى العلاء وشوبنهور زعيمى التشاؤم فى الآداب العربية والغربية ، مما يدل على أنه كان ممعناً فى البؤس واليأس قبيل توظفه . وقد مضى يختلف إلى كتاب مجلة البيان ، وخاصة المازنى وشكرى . وأخذوا ثلاثتهم يتلاقون على مائدة الآداب العربية والغربية وعلى اتجاه واضح فى الشعر ، وكأنما أحس صاحباه أنه يتعمق أكثر منهما فى فهم هذا الاتجاه ، مما جعل شكرى يطلب إليه أن يكتب له مقدمة الجزء الثانى من ديوانه الذى نشره فى سنة ١٩١٣ وتلاه المازنى فى سنة ١٩١٤ يطلب إليه كتابة مقدمة الجزء الأول من ديوانه ، وسنعرض للمقدمتين فى حديثنا عن نقده . ونراه فى هذه الفترة التى امتدت من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩١٤ يكتب مع صاحبيه فصولا نقدية فى مجلة عكاظ كما نراه عاكفاً على فكرتين هما فكرة عبادة البطولة كما صورها « كارليل » فى كتابه الأبطال وعبادة القوة كما صورها نيتشه فى كتاباته الفلسفية ، ووقف طويلا بإزاء فكرته عن « السوبرمان » أو المثل الأعلى للإنسان ، مما جعله يكتب فيها مقالا بمجلة البيان . ومع أنه كان يناقش الفكرتين : فكرتى القوة والبطولة ويردهما فى بعض جوانبهما نراهما تتركان ظلالا كثيرة على صفحة نفسه ، بل لعلنا لا نتجاوز الحق إذا قلنا إن هذه الظلال التقت بنفس طالما استشعرت القوة والاستطالة والأنفة والكرامة ، فالتحمت بها التحاماً جعلت من حياة الفتى فيما بعد

صورة عاتية للشموخ والاستعلاء .

وقد مضى الفتى الأسوانى ينهض بأعباء وظيفته فى ديوان الأوقاف ، وشدما هاله أن وجد الخديو يتخذ كل وسيلة لاختلاس أموال الصدقات فى هذا الديوان ، كأنه ضيعة من ضياعه ، ولا حسيب ولا رقيب ، وتعالت أصوات طلاب الإصلاح من المصريين تطلب فرض الرقابة على الديوان وأمواله . ورأى الفتى المأساة وفضائحها تحت عينيه ، فانبرى يكتب فى الصحف بدون توقيع بعض ما يراه من مقترحات لدرء الفساد ، ولم يخفَ على المراصد الخديوية والإنجليز فى قصر الدوبارة أنه صاحب الاقتراحات ، وحاول الإنجليز أن يتصلوا به ليتخذوه أداة لمناوراتهم مع الخديو ، ولقى السكرتير الشرقى ، فاستهل الحديث معه عن الأدب وعن برنارد شو ، ثم استطرد إلى الكلام عن الصحافة ، ولم يلبث أن عرض لبعض فضائح ديوان الأوقاف ملوحاً بأن ذلك يرجع إلى حرمان الديوان من الرقابة الأجنبية . وما كاد يسمع منه الفتى ذلك حتى ثار لكرامة وطنه قائلا إن المجلس البلدى فى الإسكندرية يتمتع بتلك الرقابة ، والفساد يستشرى فيه . وانتهى اللقاء عند هذا الحد وكأنما ألقم السكرتير الشرقى حجرا بجوابه الصارم . وكانت الجمعية التشريعية قد أنشئت فى سنة ١٩١٣ فحولت الديوان إلى وزارة ، حتى تستطيع الإشراف على ميزانيته وتغلّ يد الخديو عن اختلاس أمواله ، ولم تنسَ الحاشية الخديوية للفتى موقفه ، فأخذت تبيت له كى تخرجه من عمله ، ولكن كيف يخرج ؟ لقد وسوسوا إلى أحمد حافظ عوض الذى أصبح المحرر الأول

لصحيفة « المؤيد » أن يزين له الاستقالة من وظيفته التى لاتلائم مواهبه الأدبية ليعمل معه محرراً فى صحيفته ومشرفاً على صفحة الأدب . ولم يكد يحدثه فى ذلك حتى حنّ إلى عمله القديم فى الصحافة ، فلباه وهو لا يعلم ما ينتظره ، ولم يطل به الانتظار ، فإن الخديو قام فى غضون سنة ١٩١٤ برحلة فى الوجه البحرى يحاول أن يجمع بها الصفوف من حوله واصطحب معه أحمد حافظ عوض ليكتب مشاهداته فى الرحلة وينوه بها فى صحيفته ، وليصوغ ما يكتبه بعد ذلك فى كتاب يسمى « كتاب الرحلة الذهبي » . وأناب عنه الفتى فى تحرير « المؤيد » فى أثناء غيبته ، وفوجىء برشوة تقدم له كى يشترك فى الكتاب الموعود وما يحمل للخديو من مبايعات ومن ورود الثناء . وغضب لكرامته ، فترك « المؤيد » إلى غير رجعة ، مؤثراً الجوع على المصانعة .

وأقام عباس فى القاهرة أياماً بعد استقالته من تحرير « المؤيد » ثم ولى وجهه نحو أسوان ، وهناك أخذ يعد كتاباً سماه « ساعات بين الكتب » سجل فيه خواطره وتعليقاته على قراءاته وقد امتد إلى نحو خمسمائة صفحة أودعها تأملاته فى أهم مذاهب الفكر الحديث وخاصة مذهب داروين فى النشوء والارتقاء ومذهب نيتشه فى السوبرمان . وهو غير الكتاب الذى نشره بنفس الاسم فى سنة ١٩٢٩ وقد حالت ظروف دون نشره الكتاب الأول إلا بعض صحف منه ، وقد اكتفى فيما بعد أن يودع كتابه « الفصول » بعض مقالاته ، وهى تدور على آثار أسوان ونظرات فى الشعر والشعراء . وألف فى نفس هذه الفترة كتابه « مجمع الأحياء » الذى جعله على ألسنة

العقاد والبومة التى يحتفظ بها على مكتبه
وهو بذلك يتحدى التشاؤم

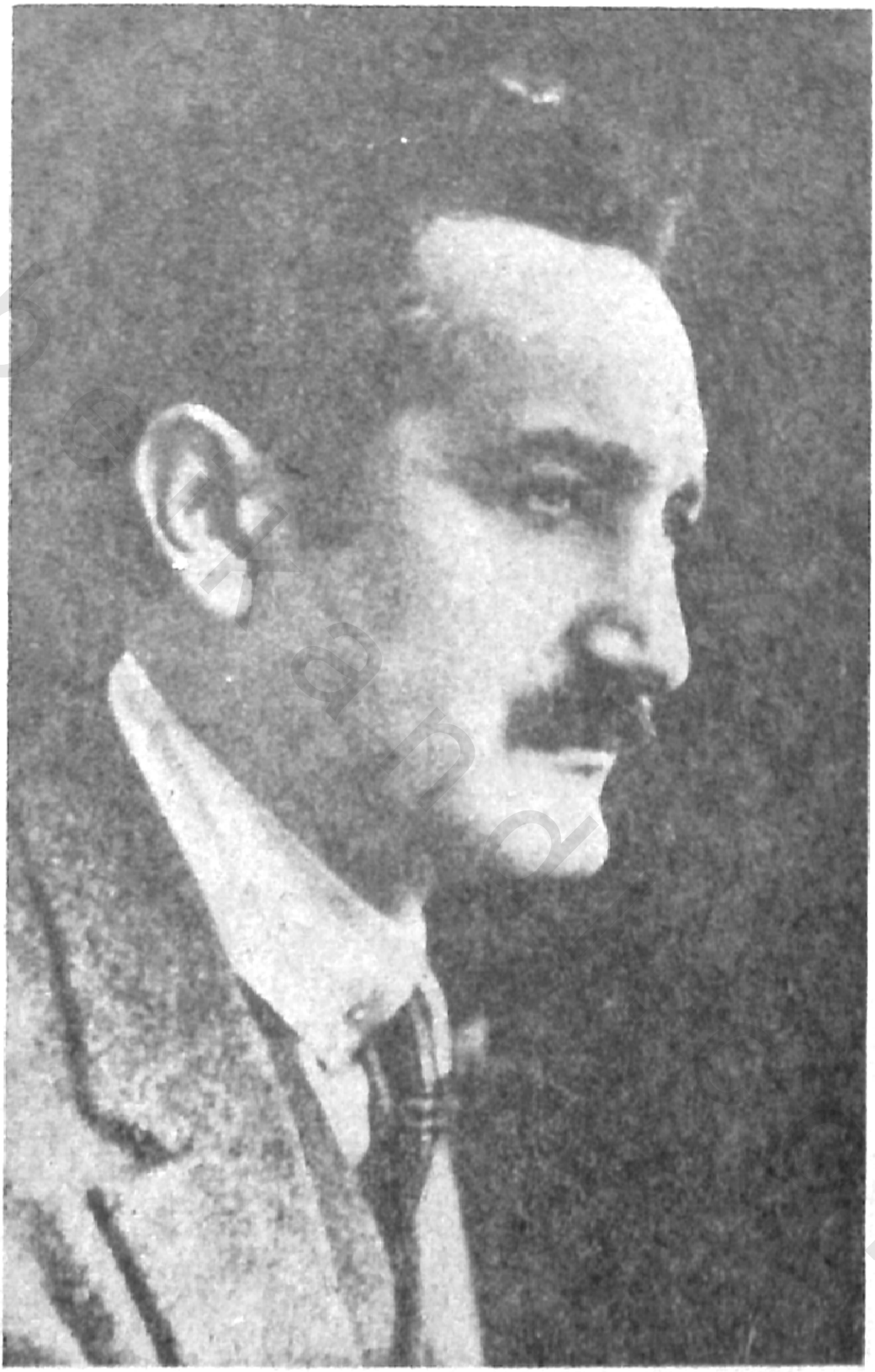

العقاد أيام حبه لسارة

الحيوانات مشركاً معها ابن آدم وبنت حواء ؛ وقد وازن فيه بين فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التي تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية . وألف طائفة من الخواطر سماها « الشذور » ونظم أكثر من نصف قصائد الجزء الأول من ديوانه . وكانت قبل ذلك قد أعلنت الأحكام العرفية ووضعت الرقابة على الصحف ، ونشبت الحرب الكبرى الأولى ولم يجد عباس محيصاً من بقائه فى بلدته ، إذ عُطلت أكثر صحف القاهرة وما بقى منها قيدته الرقابة بالسلاسل والأغلال . وقد مضت السلطة العرفية تسجن وتنفى الوطنيين المخلصين إلى أوربا أو إلى مالطة ، وكان ممن نفتهم إلى الجزيرة الأخيرة ناظر مدرسة المواساة الإسلامية بأسوان ، فخلفه عباس فى عمله تحديا للسلطة الغاشمة . وعنف مدير أسوان وبطانته من الحكام بالشعب عنفاً شديداً ، وكانوا يؤمون نادياً ويؤمه معهم بعض سراة البلدة ، تعدوا فيه المباح إلى مالا يباح ، فكتب عباس مقامة سماها « نادى العجول » نحابها نحو الهجاء اللاذع ونراه يستهلها بقوله على لسان المدير رئيس النادى : « إن العجل مدنى بالطبع ، ونحن — معشر العجول — قد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الأجسام وصلابة القرون » . وشاعت المقامة الفكهة على كل لسان ، فاستشاط المدير غضباً ، واستعدى على عباس مفتش الداخلية الإنجليزى ، فحددت إقامته ووضع تحت مراقبة شديدة ، وأخذ يكتب شكاوى كثيرة — تصور ظلمهما وبغيهما وفسادهما — إلى جعفر والى وكيل وزارة الداخلية ، وتحين فرصة هرب فيها إلى القاهرة سنة ١٩١٥

حيث التقى بجعفر والى ، ووقفه على حقيقة المدير والمفتش وطغيانهما ، فأمر بإحالة الأول على المعاش ونقل الثانى من أسوان . وعرف جعفر والى — وكان يقدر الأدب وأصحابه — أن عباساً يبحث عن عمل له ، فعرض عليه أن يعمل فى رقابة الصحف فقبل ، غير أنه لم يمض فيها سوى ستة أيام ، إذ توالت عليه التنبيهات بأن أخباراً تنشر وكان ينبغى أن لا تنشر ، واصطدم به الرقيب الإنجليزى ، فقدم استقالته وقُبلت فى الحال .

وكانت الصحافة كما مرّ بنا تعانى من أزمة التعطيل أو التقييد ، فاتجه إلى التعليم بالمدارس الحرة ، وسرعان ما انتظم مع صديقه المازنى فى مدرسة الإعدادية الثانوية الأهلية يدرس لتلاميذها التاريخ والترجمة ، ولقبوه بالكاهن « حرحور » رمزاً لما كان يتصف به من وقار وشدة . ونشر حينئذ « الشذور » و« مجمع الأحياء » والجزء الأول من ديوانه . وكان ينشر فصولا فى المجلات ، وخاصة مجلة المقتطف ، ومما نشره بها مقال عقب به على فصل كتبته الآنسة مى زيادة عن فلسفة برجسون ، وكتب فصلين رائعين وازن فيهما بين فلسفة أبى العلاء وفلسفة شوبنهور ، كانا موضع إعجاب يعقوب صروف محرر المقتطف ، فأنس له أنسا جعله يرخص للأديب الناشىء فى أن ينتفع بمكتبة صحيفته ومجلداتها القيمة فى بحوثه السبنسرية كما كان يسميها ، مشيراً بذلك إلى قوته فى الاستدلال على شاكلة الفيلسوف الإنجليزى « هربرت سبنسر » . ولم يلبث هو وصديقه المازنى أن استقالا من المدرسة الإعدادية . وعرف ذلك صروف ، وكان يعلم أن القيادة العسكرية الإنجليزية تبحث عن مراسلين صحفيين لمنطقة

الحدود المصرية الشرقية ، ولم يكد يذكر ذلك لعباس حتى بادره بأن واجب الدفاع عن الحدود ينبغى أن يكون لمصر وحدها ، وأبى له شرفه الوطنى تلك الوظيفة . وهيأ له صروف الفرصة كى يشتغل مع صاحبه المازنى مدرسين بمدرسة وادى النيل الثانوية . وفى هذه الأثناء نشر الجزء الثانى من ديوانه ، وقد مضى هو وصاحبه المازنى فى هذه المدرسة والمدرسة الإعدادية الأهلية يهاجمان فى التلاميذ أدب الشكاية والبكاء الذى كان قد نشره فى نفوس الناشئة المنفلوطى بعبراته ونظراته ، وأبليا فى ذلك بلاء محموداً . ولم يدر العام حتى استقالا من تلك المدرسة كما استقالا من سابقتها ، بسبب انقطاع الراتب وسوء أحوال المدرستين المالية . ويئسا من العمل فى التدريس وفى الصحافة جميعاً وسكنا فى حى الإمام الشافعى على طرف الصحراء بين عالم الحياة وعالم الموت لاختزال النفقات المعيشية اختزالا قد يغنيهم عن العمل لبضعة أشهر ، حتى يأتى الفرج . وبينما يخوضان غمرات اليأس إذا عبد القادر حمزة يرسل إلى عباس قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى عارضاً عليه العمل معه فى تحرير صحيفة « الأهالى » بالإسكندرية ، وكان قد عمل على إنشائها محمد سعيد حين ولى رياسة الوزارة من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩١٤ وظلت لسان حاله ، ولم يكد يبلغ عباساً استدعاء عبد القادر حمزة له حتى أسرع إليه ، وأخذ يشركه فى تحريرها . ووضعت الحرب أوزارها فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وسرعان ما ظهرت الدعوة الوطنية على يد الوفد المصرى وبدأنا نضالا عنيفاً أسهمت فيه صحيفة « الأهالى » وغيرها من الصحف ،

واندلعت الثورة على المحتل الغاشم فى مارس سنة ١٩١٩ وأخذ لهبها يتطاير فى كل مكان ويزداد حدة وعنفاً مع الأيام ؛ وحاول الإنجليز قمع الثورة بالنفى والإلقاء بالوطنيين فى غياهب السجون ، والمصريون يزدادون غيظاً وحنقاً مصممين على الخلاص من نير الاستعمار مهما كلفهم ذلك من نفوس ومهما سفكوا فيه من دماء . واضطر رشدى رئيس الوزارة حينئذ إلى الاستقالة وخلفه محمد سعيد فى ٢١ من مايو ، وكان عثمانى النزعة فى تفكيره وشعوره ، فأعلن أنه ينبغى أن يؤجل النظر فى الحماية التى ضربها الإنجليز على مصر منذ سنة ١٩١٤ حتى توضع معاهدة الصلح بين تركيا والحلفاء . وكان رأياً خاطئاً ، لأن تركيا أصبحت لاحول لها ولا قوة ، فإذا عرض عليها الإنجليز استمرار حمايتهم فى مصر قبلت ذلك دون تردد . وثار الرأى العام على سعيد . وثار معه عباس ، فاستقال من صحيفة « الأهالى » وفتحت « الأهرام » له صدرها ؛ فمضى يكتب حيناً مقالات سياسية وحيناً مقالات أدبية ، وحدث أن أصدرت لجنة ملنر فى ٢٩ من ديسمبر بلاغاً تعبر فيه عن مهمتها تهدئة للرأى العام ، وجاء فى الترجمة الرسمية له « أن اللجنة ترغب رغبة صادقة . . فى أن تمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها إلى ترقية شئون البلاد تحت أنظمة دستورية » . فأسرع عباس يوضح ما فى الترجمة من تحريف ، إذ المقابل لكلمة Under Self Governing Institutions الواردة فى البلاغ هو « تحت أنظمة حكم ذاتى » لا « تحت أنظمة دستورية » . وكان لكشفه عن هذا التدليس فى الترجمة الرسمية دوى قوى فى المحافل الوطنية . ونراه ينضم فى أثناء المد

الثورى إلى جماعة « اليد السوداء » ويشترك فى وضع منشوراتها النارية الملتهبة . وينازله مرضه القديم ويقعده عن العمل ، ويلجأ منه إلى أسوان فى شتاء سنتى ١٩٢١ و ١٩٢٢ طلباً للاستشفاء ؛ وفى أثناء ذلك ينشر الجزء الثالث من ديوانه وكتاب « الديوان فى النقد والأدب » الذى ألفه بالاشتراك مع صديقه إبراهيم عبد القادر المازنى ؛ وفيه هاجم شوقى هجوماً عنيفاً . وأخذ فى سنة ١٩٢٢ يشترك مع عبد القادر حمزة فى تحرير صحيفة الأفكار التى كانت تقف مع الوفد ضد خصومه السياسيين ، ويكتب فصولا أدبية فى « الأهرام » وفى بعض المجلات مثل « الرجاء » . وينشر حينئذ كتابه « الفصول » مسجلا فيه نشاطه الأدبى فى تلك المرحلة الثانية من حياته ، إذ جمع فيه خير ما كتبه فى الصحف والمجلات منذ تحريره فى « المؤيد » مضيفاً بعض صحف من كتابه « الشذور » ومن كتابه « سباعات بين الكتب » الذى لم يتح له نشره كاملا .

وواضح أن حياته فى تلك المرحلة كانت صراعاً مريراً بين الصحة والمرض ، وبين كفاف العيش وأثقال العوز ، وبين ربيع الأمل وجحيم اليأس ، وكلما سار فى طريق وجد أمامه هوة أو أدركته العلة والإعياء ؛ إلا طريقاً واحداً ظل ثابت الخطى فيه ، وظل صاعداً إلى غاية الغايات ؛ وهو طريق النهضة بأدبنا المصرى ورسم الصورة المبتغاة لشعرنا ، ودفع النثر فى تيار الفكر العالمى ومذاهبه الفلسفية ، مع الذود عن كيان الوطن ومناهضة المحتل الغاشم ، وهو فى أثناء ذلك تغشاه المحن وتنجاب أمام إرادته الصلبة وإيمانه بأنه خلق ليكون لأمته عقلا مفكراً وقلباً نابضاً .

٣

فى خضمّ السياسة والأدب

ما وافت سنة ١٩٢١ حتى أخذت تتجمع الدلائل على أن تصدعاً خطيراً يوشك أن يحدث فى جبهة النضال الشعبى ؛ ويستمر الشعب فى مقاومته ويعلن الإنجليز فى فبراير تصريحهم المشهور بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، مع تحفظات تهدم هذا الاستقلال هدماً . ويمضى الشعب فى تحديه للسياسة الإنجليزية .

وفى هذه الأثناء أصدر عبد القادر حمزة صحيفة البلاغ فى ٢٨ من يناير سنة ١٩٢٣ ؛ وأشرك معه فى تحريرها عباسا العقاد . واستمرت الحرب لا بين الشعب والإنجليز بل بين الوفد وخصومه من الأحرار الدستوريين وغيرهم ، وكان قلم عباس العقاد أقوى سلاح استعان به سعد زغلول فى تلك الحرب ، وبلغ من إعجابه به أن نعته بأنه « كاتب جبار المنطق » . وكان العقاد يكتب فى البلاغ حينئذ كل أسبوع أو أسبوعين صفحات أدبية يتناول فيها الشعر والفنون الجميلة وبعض المذاهب الفلسفية وبعض نظرات فى الطبيعة أو فى الآثار المصرية أو فى المتنبى وأبى العلاء ، فجمع من كتاباته طائفة وأضاف إليها بعض مقالات قديمة ، ونشرها باسم « مطالعات فى الكتب والحياة » ولم يلبث أن نشر فى السنة التالية طائفة ثانية من مقالاته الأدبية فى البلاغ باسم « مراجعات فى الآداب

والفنون » . وقد ضم إليها مقالة من مقالاته فى مجلة البيان وأخرى نشرها فى الهلال لسنة ١٩٢٥ وفيها يتحدث عن المرأة الشرقية وما يحسن أن تستبقى من أخلاقها التقليدية وما يحسن أن تقتبس من شقيقتها الغربية .

ويجرى فى حياته منذ أوائل هذه المرحلة أو قبيلها بقليل ضرب من الحب لفتاة أجنبية مسيحية ؛ وفيه كتب ، فيما بعد ، قصته الفريدة « سارة » . وفى هذه الأثناء توثقت صلته بالآنسة « مى زيادة » وكانت أديبة فذة ، اتخذت من بيتها ندوة فى أصيل كل ثلاثاء ، فكان يؤم هذه الندوة مع من يؤمونها من أعلام الفكر والأدب أمثال أحمد لطفى السيد وخليل مطران وشوقى وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبرى ومصطفى عبد الرازق وطه حسين ومصطفى صادق الرافعى حيث يدور سمر مؤنس فى منازع الفكر والأدب والفن . ومع أنه أخذ حينئذ يطمئن إلى شىء من رغد العيش نجده لا يفكر فى الزواج ويظل عزباً مدى حياته

ولا نصل إلى سنة ١٩٢٦ حتى تصدر صحيفتا البلاغ والسياسة — على طريقة بعض الصحف الغربية — ملحقاً أدبيا أسبوعيا ، وأخذ العقاد يعتلى فى ملحق صحيفته ذروة المجد الأدبى التى كان يرنو إليها منذ فاتحة حياته لا بأسلوبه الأصيل فحسب ، بل أيضاً بفقهه بمناحى الفكر الغربى والشرقى وما استقام له من مثل عليا فى شئون الشعر والأدب والفلسفة ومن نظرات عميقة فى الكون والحياة . وسرعان ما تحول بهذا الملحق الأسبوعى لصحيفته إلى ما يشبه مدرسة يتمرن فيها

ناشئة الأدباء على الكتابة والتحرير والنقد .

وكان سعد فى كل هذه الأثناء يفسح للعقاد كى يحتفظ بكرامته كاملة وكى يتخذ الموقف الذى يراه ، حتى لو أدى إلى معارضته أو معارضة حزبه . من ذلك موقفه فى قضية طه حسين حين نشر كتابه « فى الشعر الجاهلى » سنة ١٩٢٦ ودعا فيه إلى حرية النقد والفكر وأن ننظر فى الأدب متحررين من كل مذهب وعقيدة سوى البحث التحليلى ، فقد ثار عليه النواب الوفديون ، وشايعهم سعد ، ولما ألح هؤلاء النواب فى طلب إبعاده عن الجامعة انبرى العقاد النائب الوفدى يدافع عنه انتصاراً للحرية الفكرية غير مبال بسخط الساخطين من حزبه . ومن ذلك أيضاً موقفه فى تكريم شوقى سنة ١٩٢٧ فقد أقيم له مهرجان برياسة سعد لمبايعته بإمارة الشعر العربى ، وكان قد أصلاه ناراً حامية من نقده لشعره فى كتاب « الديوان فى النقد والأدب » وقد مضى فى البلاغ الأسبوعى على الرغم من رياسة سعد للمهرجان يصب على إكليل مبايعته شواظاً من نقده اللاذع . وحدث قبل ذلك أن زار اللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى مدينة المنيا فى عهد الوزارة الزيورية ، وهيأت له الإدارة استقبالا حافلا ، فغلى الدم فى عروق العقاد ، وعنف بالمندوب السامى والمحتفلين به عنفاً شديداً ، ووجهت إلى سعد تهمة تحريضه على هذا العنف فقال لمن وجهوها بلسان الإنجليز : « إنها تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه »

وعلى هذا النحو كان العقاد فى عمله الصحفى والأدبى يحتفظ لنفسه

باستقلاله الشخصى فى الرأى كما يحتفظ بكرامته إلى أقصى حد ؛ ومن المحقق أنه لعب دوراً خطيراً فى كرامة الأدب والأدباء ، فقد كانوا قبل عصره يحيون حياة لا يشيع فيها الاستقلال ؛ إذ كانوا يشعرون بأنهم فى حاجة إلى من يحميهم حتى يصيبوا ما يريدون من العيش والمنزلة الأدبية . أما العقاد فبدأ حياته مستقلا عن الأحزاب ، كما مرّ بنا ؛ غير مفكر فى أن يحميه هذا الحزب أو ذاك ، ولا فكر بعد ذلك فى أن يرعاه هذا العظيم أو ذاك ، وقد مضى يحتمل صنوفاً من العلة والمشقة والعسر ، وشىء لا يستطيع أن يعبث بكرامته وعزة نفسه ، واستقر أخيراً فى صحيفة البلاغ مع الاحتفاظ الشديد بكرامته وحريته واستقلاله فى الرأى حين يكون هذا الاستقلال واجباً . وبذلك كان قدوة مثلى لأدبائنا كى يحيوا حياة مستقلة حرة كريمة

وينشر فى سنة ١٩٢٨ الجزء الرابع من ديوانه ، وبذلك تتم أجزاء ديوانه القديم كما ينشر فى تلك السنة كتابه « الحكم المطلق فى القرن العشرين » . وفى سنة ١٩٢٩ ينشر طائفة من مقالاته الأدبية التى كتبها فى البلاغ الأسبوعى بعنوان « ساعات بين الكتب » مصوراً فيها تأملات عقله الخصب الغنى فى الشعر العربى والأوربى وفى الفنون وفى الفلسفات الغربية والشرقية . ولا نتقدم طويلا فى سنة ١٩٣٠ حتى يشيع أن فؤاداً سيعود إلى ارتكاب حماقاته القديمة ، فيحل البرلمان ويعطل الدستور ، وسارع العقاد فخطب فى مجلس النواب خطبة نارية صاح فيها صيحته المشهورة قائلا : « إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه ». وارتجف فؤاد وأعوانه وتمتموا إن هذا عيب فى

الذات الملكية غير أنهم لم يستطيعوا تقديم العقاد للمحاكمة بسبب تمتعه بالحصانة البرلمانية . حتى إذا تطورت الظروف وأصبح إسماعيل صدقى رئيساً للوزارة المصرية وعمد إلى إلغاء الدستور . وأحل محله دستوراً آخر يحد من إرادة الشعب وسلطانه ويجعل فؤاداً حاكماً مطلقاً انبرى العقاد يكيل له ضربات فى الصميم مدافعاً عن حقوق الأمة فى الحرية والحكم ، وعطل صدقى البلاغ ، فكتب العقاد فى صحف مختلفة ، مصوبا قلمه بل رمحه إلى صدقى ومن وراءه من القصر والإنجليز ، ولا يلبث صدقى أن يعمد إلى الغدر به ، فيأمر فى شهر أكتوبر باعتقاله ، ويقدمه إلى المحاكمة بتهمة عيبه فى الذات الملكية! ويحكم عليه بالسجن تسعة أشهر طوالا ، لم تفت فى عزيمته ولا فى مقاومته للطغيان والبغى ، بل زادتهما ضراماً واشتعالا ، فبمجرد أن أفرج عنه فى أوائل شهر يولية اتجه توا إلى ضريح سعد زغلول ولم يكد يلم بساحته حتى أنشد فى مستقبليه قصيدة بديعة ، أعلن فيها ثباته على مبادئه وإصراره على مقاومة أعداء الأمة ، وفيها يقول :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر ... فهأنذا فى ساحة الخلد أولدُ
عداتى وصحبى لا اختلاف عليهما ... سيعهدنى كل كما كان يعهد

ونرى العقاد يستمر فى حربه لصدقى شاهراً عليه مقالاته ، فى صحف مختلفة مثل الأفكار والمساء وكوكب الشرق والجهاد ، وصدقى يجن جنونه ويغلق الصحيفة تلو الصحيفة وينشر العقاد فى هذا

العام عن ابن الرومى دراسة تحليلية بارعة ، ويتابع حملاته الشعواء على صدقى . ويدور العام فينشر كتابه « تذكار جبتى » يحلل فيه شخصيته ونفسية شعبه الألمانى ، ويشن غارة نقدية عنيفة على « رواية قمبيز » لشوقى . ويظل ثابتاً فى وطيس المعركة ضد صدقى وحكمه الإرهابى . وينشر فى سنة ١٩٣٣ ديوانيه : « وحى الأربعين » و « هدية الكروان » ويمضى فى مقاومته لصدقى ما وسعته المقاومة حتى تسقط وزارته فى شهر سبتمبر من تلك السنة ، ويظل فؤاد سادراً فى غوايته وعداوته للشعب ، فيعهد إلى عبد الفتاح يحى بتأليف وزارة رجعية جديدة ، ويسلط عليها العقاد قذائف مقالاته . ولا تمضى طويلا فى سنة ١٩٣٤ حتى يقام له فى ٢٧ من أبريل حفل تكريم بمسرح الأزبكية ، يشترك فيه أعلام الفكر والأدب . ويحدث أن يحمل فى غضون سنة ١٩٣٥ على وزارة توفيق نسيم ، ويصطدم به النحاس فيقول له إنى كاتب الشرق بالحق الإلهى . ويكون فى ذلك فصل الخطاب وخروجه من الوفد .

٤

بين الصحافة والتأليف

خرج العقاد من الوفد وهو يتقد سخطاً وموجدة على مصطفى النحاس وظهيره مكرم عبيد لما رآه من انحرافهما عن الطريق السوىّ فى مقاومة القصر والإنجليز ، وسرعان ما سقط عليهما بسياطه فى « روزاليوسف » وأيدته صاحبتها فى موقفه تأييداً كريماً .

وسرعان ما أغلقت تلك الصحيفة وحاول العقاد إخراج صحيفة غير أنها لم تستمر سوى ثلاثة أيام ؛ إذ لم يكتب لها الرواج . وأخذ يطبق عليه الإملاق بمخالبه . وكان على صلة بأسرة تجاوره وعرفت ما يعانيه من محنة . فعرضت عليه سيدة منها نبيلة القلب حليها ليرهنها على ما يتبلغ به . حتى إذا عاد إليه اليسر افتك الرهن وأعاد إليها الحلى ؛ واضطره ضيق ذات اليد أن تطوقه السيدة بهذه المكرمة ، التى ردها — فيما بعد — إلى طفلة لها ، توفيت عنها ولم يكن لها عائل ، سوى خالة رقيقة الحال ، فكفلها ورعاها ، وأفاض عليها من العطف ما جعلها تدعوه بأبيها ؛ حتى إذا أسلم روحه إلى بارئها انتحرت حزناً على راعيها وحاميها ويأساً بعده من الحياة .

وقد أخذ قلب العقاد فى محنته لسنة ١٩٣٦ يتقطع حسرات على ماضى الكفاح الوطنى ونراه يكتب حينئذ كتابه « سعد زغلول » مصورا سيرته وشخصيته . وكانت نذر الحرب العالمية الثانية أخذت تتجمع فى الجو الدولى ، فرأت إنجلترا تأميناً لجبهتها الحربية أن تعقد معاهدة مع مصر لتحسين العلاقات بين البلدين ، وتألفت لذلك هيئة للمفاوضات من حزبى الوفد والأحرار الدستوريين برياسة مصطفى النحاس ، وقد سارع منذ توليه الحكم إلى إعلان سياسة الصداقة مع الدولة الغاصبة ، وبذلك فصم حزبه عن الشعب ، مهدراً نضاله الماضى للإنجليز الغاشمين ، ولم يلبث أن كبل البلاد فى أغسطس سنة ١٩٣٦ بمعاهدة تعد وصمة فى جبينه ، إذ ارتضى فيها استمرار الاحتلال الإنجليزى مع ما يتبع ذلك

من قيود عسكرية مختلفة . وفسحت صحيفة « مصر الفتاة » صدرها للعقاد كى يشن هجوماً عنيفاً على تلك المعاهدة التى سماها النحاس « وثيقة الشرف والاستقلال » بينما هى تخلو من كل شرف واستقلال ؛ بل إنها تخنقهما خنقاً. وتمضى مع العقاد فتراه ينشر فى سنة ١٩٣٧ ديوانه « عابر سبيل » وكتابه : « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » ويفكر فى جهاده الوطنى وما أبلى فيه وما ذاق من مرارة السجن ؛ فينشر كتابه : « عالم السدود والقيود » مصوراً رحلته فيه لمدة تسعة شهور ؛ وعارضاً لبعض وجوه الإصلاح التى ينبغى أن تجرى فى السجون . وأعاد حينئذ طبع كتابه « ساعات بين الكتب » وأضاف إليه مجموعة كبيرة من مقالاته . وتبدو بوادر التصدع فى حزب الوفد بانشقاق بعض أعضائه ، ويخرج عبد القادر حمزة بصحيفة « البلاغ » إلى صفوف المعارضة للنحاس والوفد ، فينضم العقاد إلى أسرة صحيفته . وتتطاحن الأحزاب على كراسى الحكم تطاحناً عنيفاً فى سبيل منافعه العاجلة ، وكأنما لم يعد هناك تفكير فى مصلحة قومية ولا مسئولية وطنية .

ويعين العقاد فى سنة ١٩٣٨ عضوا بالمجمع اللغوى ويأخذ منذ هذا التاريخ فى تغذيته ببحوثه اللغوية القيمة وآرائه السديدة فى المصطلحات العلمية ، كما نراه ينشر قصة « سارة » وكان قد نشر كثيراً من صحفها فى السنة السابقة بمجلة الدنيا المصورة . وينشر فى السنة التالية كتابه « رجعة أبى العلاء » متخيلا فيه طوافه بأرجاء العالم الغربية والشرقية ومتحدثاً بلسانه عن أحوال هذا العالم وحقائقه المعاصرة ، وجعل مصر خاتمة طوافه .

ونرى العقاد فى سنة ١٩٤٠ يشن حرباً حامية الوطيس ضد هتلر والنازية، إذ ينشر كتابيه : « هتلر فى الميزان » ؛ و « النازية والأديان » وهو فى واقع الأمر كان يدافع عن الحرية والديمقراطية أمام حكم هتلر ونظامه الفاشى الذى كان يقوم على التسلط والبطش . ونعجب أن يسدد سهامه بعيداً ، وشعبه المكبل بالحكم الفاسد وأغلال الاحتلال وتسلط القصر أولى بالدفاع عنه . ونراه حين استولى مصطفى النحاس على كراسى الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٢ تسنده حراب الإنجليز ودباباتهم يرجمه رجماً شديداً بمقالاته . وحدث أن دنت جنود الألمان والطليان من حدودنا ، وشاع أنها ستدخل ديارنا ، ففزع فزعاً شديداً لكتاباته ضد النازية الفاشية ، ويمم وجهه نحو السودان الشقيق ، حتى إذا زايله الفزع عاد إلى القاهرة . وقد نشر فى سنة ١٩٤٢ ديوانه « أعاصير مغرب » كما نشر « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » . وأخذ من حينئذ يتجه نحو دراسة الإسلام وشخصياته ، فنشر فى العام التالى « الصديقة بنت الصديق » كما نشر دراسة عن عمر بن أبى ربيعة باسم « شاعر الغزل » . وفى هذه الأثناء دعا عبد العزيز فهمى دعوته المشهورة إلى استخدام الحروف اللاتينية مكان حروفنا العربية تيسيرا على الناس فى النطق ، وأثار الموضوع فى المجمع اللغوى فتصدى له العقاد يفند رأيه بالأدلة الساطعة . ونراه فى سنة ١٩٤٤ ونقرأ له كتاباً عن « عمرو بن العاص » ودراسة أدبية عن « جميل بثينة » ويعين عضواً بمجلس الشيوخ . ونراه منذ سنة ١٩٤٥ يتحول إلى ما يشبه شجرة دانية القطوف ، لا تزال ثمارها تتساقط ذات

اليمين وذات الشمال ، فقد أخذت مصنفاته تتكاثر كثرة مفرطة حتى لنجده في هذه السنة ينشر سبعة كتب : كتابا عن المرأة باسم « هذه الشجرة » وكتابا عن الحسين بن على بن أبي طالب باسم « أبو الشهداء » وكتابا عن بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم باسم « داعى السماء » وكتابا عن « عبقرية خالدبن الوليد » وكتابا عن « فرانسيس باكون » وفلسفته وكتابا باسم « عرائس وشياطين » يضم باقة من الشعرين : العربى والغربى ، وكتابا سماه « فى بيتى » أجرى فيه حواراً بينه وبين صاحب له ضمنه حديثاً عن مكتبته وبعض آرائه وقد حمل فيه على مدارس التصوير الحديثة . ونمضى إلى سنة ١٩٤٦ وفيها ألف العقاد كتاباً عن ابن سينا باسم « الشيخ الرئيس » وكتاباً عن « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » . ونراه ينشر فى سنة ١٩٤٧ كتابه عن « الله » وكتاباً ثانياً عن « الفلسفة القرآنية » . وفى سنة ١٩٤٨ يؤلف كتاباً عن « غاندى » باسم « روح عظيم » وكتاباً عن « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » . وينشر فى سنة ١٩٤٩ كتاباً عن على بن أبي طالب باسم « عبقرية الإمام » وكان كثير الرحلة إلى أسوان شتاء ليتمتع بجوها الدفىء وليزور أمه وأهله ، نجدد دار أبيه فى هذه السنة . وينشر فى سنة ١٩٥٠ ديوانه « بعد الأعاصير » ويؤلف كتاباً عن « برناردشو » وكتاباً عن « فلاسفة الحكم فى العصر الحديث » . ويدور العام فيؤلف كتاباً عن « عبقرية الصديق » .

ونصل مع العقاد إلى سنة ١٩٥٢ وقد بلغ حنق الشعب على الأحزاب

السياسية منتباه ؛ وهو حتى ظل يضطرم بين جوانحه منذ توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ التى اعترفت بشرعية الاحتلال الإنجليزى ؛ وقد مضت الأحزاب بعدها تتخاصم على مناصب الوزارة خصاماً عنيفا تداس فيه حرمة الحكم والوطن وتوطأ بالأقدام فى سبيل المنافع والمآرب العاجلة ، وكأنما محيت كل كرامة لرؤساء الأحزاب ؛ فهم يرتمون على عتبات قصر عابدين تارة ، وتارة على عتبات قصر الدوبارة . وفى أثناء ذلك تصدر القوانين التى تكمم الأفواه وتحد من حرية الرأى والكلمة ، وتحدث تجربة فلسطين المرة ، وتتراءى للعيان خيانات الاستعمار والصهيونية ، والأحزاب سادرة فى غواية الحكم الفاسد ، لاهية عن الشعب ومطالبه فى الاستقلال والمعيشة الحرة الكريمة . وتسقط وزارة النحاس ، وتسقط وراءها وزارة حسين سرى ، ويخلفه نجيب الهلالى . وبينما الحفيظة تملأ الصدور إذا ثورة الضباط الأحرار بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر تنفجر فى ٢٣ من يولية نابعة من ضمير الشعب وإرادته ، وسرعان ما تهاوى فاروق وتهاوت الأحزاب الفاسدة وتهاوى الإقطاع والاستغلال والاحتكار ، وردت إلى الشعب حريته ، وأخذ ينعم بحياة ديمقراطية اشتراكية تعاونية سليمة ، ويخفق قلب العقاد بالفرح والابتهاج ، فينظم قصيدته « عيد النيروز » مستهلا لها بقوله :

أهلا بنيروز وليدْ ... أهلا بميلاد سعيدْ
يوم جديدٌ قلتُ : بل ... عهد على مصر جديد
عهدٌ تصان كرامةٌ ... فيه وتتبعها جهود
لا تُستذلّ ولا تُسا ... م على الهوى سوم العبيد

وغداً ستنقشع الغيو م فلا بروق ولا رعود
ما كان غير الصالحـ ين لهم قرار فى الوجود
مصر الكنانة كعبةٌ قرت على حصن وطيد
لا تلبث الأصنام فيـ ـها أن تنكس أو تميد

ونرى العقاد يحس فى عمق أن مهمة نضاله السياسى التى ندب نفسه لها منذ أوائل القرن انتهت ، فقد تحققت لمصر حريتها السياسية ، وأخذ يتحقق معها العدل الاجتماعى الذى لا تتكامل لأمة حرية بدونه ، فألقى السلاح الذى طالما شهره وجوه الإنجليز والطغاة ، إذ لم يعد فى مصر إنجليز ولا طغاة ولا ظلم ولا استعباد ولا استبداد ، وأخذ يقصر نفسه على التأليف وكتابة يوميات أسبوعية فى صحيفة الأخبار ، تصور سعة معارفه فى شتى فروع الأدب والعلم والفن والفلسفة والاجتماع والتاريخ .

ونراه ينشر فى سنة ١٩٥٢ خمسة كتب : كتاباً عن « الديمقراطية فى الإسلام » وكتاباً عن « ضرب الإسكندرية فى ١١ يولية » وكتاباً عن الزعيم الباكستانى « محمد على جناح » وكتاباً عن الزعيم الصينى «سن يا تسن» المتوفى سنة ١٩٢٩ ويختار مجموعة من مقالاته الأدبية التى نشرها بين سنتى ١٩٤٩ و ١٩٥٢ ويسميها « بين الكتب والناس » . وينشر فى سنة ١٩٥٣ كتاباً عن « عبقرية المسيح » وكتاباً عن « فاطمة الزهراء » وكتاباً عن إبراهيم الخليل باسم « أبو الأنبياء » وكتاباً عن « ابن رشد » وكتاباً عن « أبى نواس » . وفى سنة ١٩٥٤ يؤلف كتاباً

عن عثمان بن عفان باسم «ذو النورين» ويترجم طائفة من القصص الأمريكية باسم « ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى» وينشر كتاباً عن « الإسلام فى القرن العشرين » . ويكتب فى سنة ١٩٥٥ كتاباً عن طوالع البعثة المحمدية باسم « مطلع النور » وكتاباً عن فلسفة ثورتنا المجيدة باسم« فلسفة الثورة فى الميزان » ويؤلف كتاباً عن « الشيوعية والإنسانية» وكتاباً عن « الصهيونية العالمية » وكتاباً عن « إبليس » . وفى سنة ١٩٥٦ يعين عضواً بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ؛ ويظل منذ تعيينه فيه مقرراً للجنة الشعر ، ويجرى له الأطباء فى هذه السنة جراحة بإحدى عينيه ، ويضطر إلى الاحتجاب عن قرائه فى صحيفة الأخبار نحو عام ، ومع ذلك يظل له نشاطه فى عالم التأليف ، إذ ينشر كتاباً عن معاوية بن أبى سفيان باسم « معاوية فى الميزان » وكتاباً عن « جحا الضاحك المضحك » وكتاباً عن الشيوعية والوجودية باسم « أفيون الشعوب» . وتتوفى أمه فى هذه السنة ويرثيها بقصيدة مؤثرة .

ونقرأ له فى سنة ١٩٥٧ كتاباً عن « بنجامين فرانكلين » وكتاباً بعنوان « الإسلام والاستعمار » وكتاباً بعنوان « لا شيوعية ولا استعمار » وكتاباً بعنوان « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » . وفى سنة ١٩٥٨ ينشر مختارات من أشعاره فى دواوينه السابقة ملحقا بها بعض قصائد جديدة باسم « ديوان من دواوين» وينشر أيضاً كتابه « التعريف بشكسبير . ونقرأ له فى سنة ١٩٥٩ كتابه « القرن العشرون : ما كان وما سيكون » وكتاباً عن « المرأة فى القرآن الكريم » وكتاباً عن عبد الرحمن الكواكبى

باسم « الرحالة : ك » . وفى سنة ١٩٦٠ يمنح جائزة الدولة التقديرية للآداب تنويهاً بجهوده الأدبية المثمرة ، وينشر كتابه « الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين » وكتاباً عن اللغة العربية وخصائصها الفنيه باسم « اللغة الشاعرة » وكتاباً عن الشاعر الإسبانى المعاصر خيمنيز باسم « شاعر أندلسى وجائزة عالمية » . ونقرأ له فى سنة ١٩٦١ كتاباً عن « الإنسان فى القرآن الكريم » وكتاباً عن « الشيخ محمد عبده » . وينشر فى سنة ١٩٦٢ كتابه « التفكير فريضة إسلامية » . وفى سنة ١٩٦٣ نقرأ له كتابه « أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب » وكتابه « رجال عرفتهم » . وفى سنة ١٩٦٤ ينشر كتاباً عن « جوائز الأدب العالمية » وتعنى دار المعارف بنشر روائع يومياته فى صحيفة الأخبار ويخرج منها الجزء الأول .

وبجانب هذا البحر الزاخر من المؤلفات والدواوين كان يرفد منذ العقد الثالث من القرن المجلات بمقالاته الأدبية وفى طليعتها مجلة الهلال ، وقد ظل يكتب فى مجلة الرسالة منذ سنة ١٩٣٨ كما ظل يكتب فى مجلة الكتاب التى كانت تنشرها دار المعارف من حين ظهورها إلى احتجابها وفى السنوات الأخيرة توالت مقالاته فى مجلة الأزهر ومنبر الإسلام ، وقد نشرت له مجموعة من مقالاته فى المجلة الأولى باسم « ما يقال عن الإسلام» . وكان يعقد ندوة أسبوعية فى بيته كل يوم جمعة منذ نحو ثلاثين سنة . وبينما هو يغذى وطنه العربى بكل هذا الغذاء الرائع إذ الموت يختطفه فى ١٢ من مارس لهذا العام ، يختطف شخصه المادى ، أما شخصه المعنوى فلن يستطيع الموت أن يعدوعليه ، بل سيظل حيا خالداً على مدار الزمن ، من جيل إلى جيل .